



إن تجديد الدين أمر طبيعي، وقد تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فقال "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها" (أبو داود في سننه)، ويختلف الباعث الذي يدفع إلى هذا التجديد من عصر إلى آخر. ويمكن أن نأخذ نموذجاً لهذا التجديد من التاريخ ونمثل عليه بالشافعي رحمة الله، فقد سمي بمجدد المئة الثانية ولقب بـ"ناصر السنة"، وقد كان السبب في ذلك أن هناك صراعاً بين أهل الرأي وأهل الحديث بلغ أوجه في القرن الثاني للهجرة، وقد تعمقت الهوة بينهما، وقد تعصب كل فريق لاجتهاده وحكمه وأدواته التي استخدمها لإصدار فتاواه، وكانت تحدث فتن، ولكن الشافعي - رحمة الله - وضع "الرسالة" التي أصل فيها لعلم أصول الفقه، وضبط العلاقة بين أهل الرأي وأهل الحديث، وأعاد الحديث الشريف مكانته، وأعطاه قيمته الحقيقية، وقفن للقياس.

ولهذا استحق أن يكون مجدد القرن الثاني من قرون الهجرة بعد أن جاء هذا الاستحقاق حصيلة العلم الذي أخذه من مالك بن أنس رحمة الله في المدينة عندما درس على يده "الموطأ"، وتقصى "الحديث" عند أهل المدينة ثم ذهب إلى العراق، والتقي محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة رحمة الله، وأخذ عنه علمه الذي كان مثلاً لمدرسة الرأي، ثم عاد إلى مكة وكتب "الرسالة" في الأصول، وكان هذا الكتاب "الرسالة" تعميداً لعلم جديد هو "علم أصول الفقه"، وهو علم امتازت به أمتنا، وهو غير موجود عند الأمم الأخرى.

من المهم أن ننتبه إلى أن تجديد الدين لا يأتي بقرار حكومي، بل هو حصيلة وعي الطبقة العلمائية في الأمة، وانتباها للمشاكل التي تواجه الأمة، ثم تضع الحلول المناسبة لها بشكل تلقائي من خلال وعي حقائق الدين ومن خلال فهم واقع الأمة ومن خلال إبداع قواعد التجديد وأحكامه التي تحتاجها الأمة و تستدعيها ظروفها وأحوالها.

أما الآن فإن الحضارة الغربية تمثل التحدى الأكبر للدين الإسلامي والأمة والحضارة الإسلامية، لأنها تقوم على أصول

مناقضة – في كثير من الأحيان – للأصول التي تقوم عليها أمتنا وحضارتنا، لذلك فإن أي تجديد يجب أن يكون إما رداً على الحضارة الغربية التي تريد أن تفرض نفسها علينا وتلغي كياننا، أو يجب أن يكون في إيجاد توافق معها في موضوع من المواضيع لصوابية رأيها في هذا الموضوع.

فعلى سبيل المثال يعترف الإسلام بأن الكون مبني على عالمين، هما: عالم الغيب وعالم الشهادة، في حين أن الحضارة الغربية تعترف بعالم الشهادة فقط ولا تعترف بعالم الغيب وما فيه من روح وجنة ونار وملائكة وشياطين.. إلخ، وتعتبر ذلك خرافات وأوهاماً.

ومن أمثلة الاختلاف أن الإسلام يقوم على نقل متمثل بالقرآن الكريم والسنة المشرفة، وهما وحيان من الله سبحانه وأوحى الله بهما إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ويقوم على عقل يتعامل مع هذا النقل، كما يتعامل مع الكون المحيط به، في حين أن الحضارة الغربية تقوم على عقل يتعامل مع الكون المادي المحيط به فقط ولا تعترف بأي نقل.

ومن أمثلة الاختلاف أن الإسلام يعتبر أنه دين ودولة، في حين أن الحضارة الغربية تعتبر أن الدين لا علاقة له بالدولة ويجب ألا يتدخل بها، وقد سبقتها إلى هذا أوروبا المسيحية في القرون الوسطى.

ومن خلال رصد التطورات الفكرية التي حدثت خلال القرنين الماضيين في ساحات الأمة الثقافية نجد أن محاولات التجديد لم تتوقف، ويمكن أن نقسمها إلى سلبية وإيجابية، فالسلبية: ما يأتي في إطار تطوير نصوص الإسلام لصالح الحضارة الغربية، والإيجابية: ما يأتي في إطار تحديد موقف من بعض مفاهيم الحضارة الغربية والبناء عليه، **و سنضرب أمثلة على نوعي التجديد في السطور التالية.**

أولاً: المحاولات السلبية في التجديد

الأولى: يمكن أن تعتبر محاولة محمد عبده في مجال تضييق الفجوة بين عالم الغيب وعالم الشهادة لصالح عالم الشهادة ومن ثم لصالح المادية الغربية مثلاً على ذلك.

فقد ورد في سورة الفيل حديث القرآن الكريم عن الطير الأبابيل الذي أرسله الله تعالى على جيش أبرهة الذي جاء لهدم الكعبة فرماه بحجارة من سجيل، فأهلكه الله مع الفيلة التي جاء بها، فقال تعالى ﴿أَلمْ ترْ كِيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (1) **أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طِيرًا أَبَابِيلٍ (3) تَرَمِيهِمْ بِحَجَارَةٍ مِّنْ سِجِيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعْصَفَ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: 1-5].**

لقد أول محمد عبده ذلك الطير الأبابيل بأنه طير من جنس البعوض أو الذباب، وحجارة السجيل بأنها طين يابس من الذي يسمونه – الآن – الميكروب والتي هي جراثيم الجدرى أو الحصبة.

وقد أول محمد عبده الجن بالميكروب والجراثيم فقال " وقد قلت في المنار غير مرة أنه يصح أن يقال إن الأجسام الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكرونة وتسمى الميكروبات تصح أن تكون نوعاً من الجن ".

كما أول محمد عبده خلق عيسى عليه السلام بـ"اعتقاد قوي استولى على قلب مريم فأحدث الحمل بها، وكثيراً ما يكون الاعتقاد بالمرض مسبباً له".

ولكن توجه محمد عبده التجديدي بشكل عام لقي تراجعاً على يد تلميذه محمد رشيد رضا، وهو في الحقيقة تصويب وتصحيح لما مثله محمد عبده من استسلام لمعطيات الحضارة الغربية المادية وترويجها.

الثانية: أصدر علي عبد الرزاق كتاب "الإسلام وأصول الحكم" بعد سقوط الخلافة العثمانية عام 1924 على يد الإنجليز، وقد اعتبر علي عبد الرزاق في ذلك الكتاب أن الرسول صلی الله عليه وسلم جاء داعياً ولم يجيء حاكماً، وأن الخلافة التي بُرِزَت في التاريخ الإسلامي كسلطة وحكومة وأحكام وجيوش وقتل ودول إنما هي من اختراع المسلمين، وافتئات على الإسلام والرسول ولا علاقة للإسلام بها، وهو في هذا الاجتهاد يلغى الدولة من أجل أن يوافق المسلمون الحضارة الغربية فيما انتهت إليه من أحكام حول علاقة الدين بالدولة.

وقد كانت ردود الفعل واسعة على علي عبد الرزاق فلم يقبل كلامه، وقد ألفت عدة كتب في الرد عليه، وأبرزها "الإمامية العظمى" لمحمد رشيد رضا، ثم قدمت دعوى قضائية بحقه في محاكم القاهرة، وتم سحب الكتاب من الأسواق، ثم جرد المؤلف من شهادته الأزهرية.

الثالثة: تناول محمد عابد الجابري العلاقة بين النقل والعقل في كتابه "مدخل إلى القرآن الكريم" و"تفسير القرآن الكريم"، وقد ضيق مجال النقل وضخم دور العقل من أجل صالح الحضارة الغربية التي تقوم على العقل وحده كما هو معروف.

وقد انطلق محمد عابد الجابري من اعتبار القرآن الكريم معجزة عقلية، وهو في هذا مصيب، ولكنه أخطأ عندما اعتبر أن القرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة للرسول صلی الله عليه وسلم، ولم يعترف بكل المعجزات الأخرى، من مثل: انشقاق القمر، والإسراء والمعراج، وتکليم الحجر له صلی الله عليه وسلم، وحنين المنبر له، وانبعاث الماء بين يديه، ثم سقايته لجيش كامل، وطرح البركة في طعام قليل، وإطعامه عدداً كبيراً من الناس.

وقد استكمل ذلك بأنه لم يعترف بالجانب الآخر من النقل، وهو السنة المشرفة التي وضحت القرآن الكريم وفسرته، وزادت عليه في بعض أحكامها، وفي هذا تضييق للنقل لصالح العقل، ومن أجل خدمة الحضارة الغربية وترويجها التي تقوم على العقل وحده.

ثانياً: المحاوالت الإيجابية للتجديد في الدين

الأولى: رد محمد قطب على فكرة "نسبة الحقيقة" التي تقوم عليها الحضارة الغربية في كتاب "التطور والثبات في حياة البشرية" ذكر أنه ليس كل شيء متظaura في حياة البشرية، وليس كل شيء ثابت، بل هناك قضايا ثابتة، وهناك قضايا متطرفة ومتغيرة، ووضح بعد ذلك أن الثابت ما يتعلق بالعقيدة من توحيد وعبادة، وأحكام الأسرة من طلاق وزواج وميراث استناداً إلى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْأَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

الثانية: تحدث أبو الأعلى المودودي عن "القومية" التي انبثقت في الغرب بعد سقوط إمبراطوريات القرون الوسطى، واعتبرها "قومية عنصرية"، وبين أنها انتكاس ورجوع إلى الوراء في العلاقات الدولية: من الإطار الإنساني إلى الإطار العنصري الضيق.

وأوضح أن الإسلام طرح بديلاً عن ذلك وهي "القومية الحضارية"، وقد تمثلت "ال القومية الحضارية" في أمة الإسلام التي تمازجت فيها مختلف الأعراق والأجناس تحقيقاً لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأَنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُوبًا وَبَلَى لَتَعْرَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

الثالثة: كتب الطاهر بن عاشور في مقاصد الشريعة، ودعا إلى توسيع المقاصد وعدم حصرها في المقاصد الخمسة التي وضحتها الشاطبي في كتاب "المواافقات"، وهي: مقاصد حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

لذلك اقترح بعض العلماء اعتماد مقاصد أخرى للدين من مثل مقاصد: الحرية والعدل والمساواة والتي يمكن أن نستفيد بها من تطورات الحضارة الغربية، ولقي هذا التوجه قبولاً لدى عموم علماء الأمة، ليس هذا فحسب بل زاد الاهتمام بعلم المقاصد بسبب الكتابات الواسعة عن علم المقاصد لدى الطاهر بن عاشور وغيره من الكتاب.

الخلاصة:

التجديد في الدين أصل من أصول الحضارة الإسلامية، وقد قام علماء متعددون بمهمة التجديد في التاريخ الماضي، وإن الحضارة الغربية هي التحدي الأكبر الذي يواجه -الآن- الدين والأمة والحضارة الإسلامية، وقد قامت عدة محاولات للتجديد والاجتهاد في العصر الحديث، وقد رصدنا بعض محاولات التجديد السلبية في ثنايا المقال، كما رصدنا بعض محاولات التجديد الإيجابية.

الجزيرة نت

المصادر: